

شكل القرآن

الأستاذ الأول المتمرس في

جامعة الكوفة

الدكتور محمد حسين علي

الصغير

نريد بشكل القرآن فيما يلي، الاطار الخارجي للنص القراني، وهذا الاطار عبارة عن رسمه واعجابه ونقطه، وما صاحب ذلك من جهد وتطوير منذ الكتابة الاولى للمصاحف.

وهذا كله شيء يختلف عن القرآن نصاً متعبداً بتلاوته، فالقرآن ألفاظه ومعانيه، وتشريعه ومراميه، بسوره وآياته متواترة متكاملة، وشكله هو صورته المصحفية التي تواضع عليها الناس في الرسم والأعراب والنقط والاعجام للدلالة على ألفاظه في النطق، وعلى هيئته وتركيبه في التلفظ، فهو تسجيل ثانوي للوحي الأولي، بما يؤدي الى صورة حقيقته المثلى حينما يتلى بالالسن معادا كما أنزل.

وارتباط هذه الظاهرة الشكلية باللفظ المنزل على النبي (ص) الكريم وحيماً سماوياً، لم تأخذ طابع الصدفة او صقيال عفوية، وإنما كان أمراً إلهياً مقصوداً إليه، وجهداً رسالياً معنياً بالذات، ليتضافر على حفظ القرآن الكريم -براً بوعده تعالى- عاملان:

الحفظ في الصدور، والرسم في الصدور. وهو كما يبدو من استعراض الروايات واستقراء الأحداث أمر مندوب إليه ومرغوب فيه، وقد كان تأسيس ذلك منذ عهد مبكر، اقترن بأول نزول الوحي- كما سببت الإشارة التفصيلية اليه-(١) وأوشك على الكمال عند جمع الناس على لغة قريش في القراءة المصحفية زمن عثمان، وكتابة نص متكامل لهذا التوحيد، في المصحف الأمام المتداول الى اليوم مرسومه، الا ان ذلك النص - مضافاً الى تسويته بالخط الكوفي القديم- جاء مجرداً (من النقط والشكل، ليحتمل ما صح نقله، وثبتت تلاوته عن النبي(ص) اذ كان الاعتماد على الحفظ، لا مجرد الخط)(٢).

(١) ظ: فيما سبق مقالته: جمع القرآن.

(٢) القسطلاني

ورسم المصحف -كما سنفصل القول فيه بإذن الله تعالى- جاء مجردا من كل علامات الشكل والنقط والاعجام، لأنهم كانوا يستحبون تخليص القرآن من كل الزوائد على الخط الكوفي، ولما أورده جملة من أهل العلم- من قول مشترك يحمل عدة معان- ان السلف كانوا يقولون:

(جردوا القرآن ولا تخطوه بشيء)(٣)

فلم تكتب مضافا الى اهمال النقط والاعراب، وحتى أسماء السور، ولم يدون عدد آياتها، ولا الإشارة الى مكيتها ومدنيها.

وقد اختلفوا فيما تبين فيه القراءة من الشكل، وكان اختلافهم مبنيا على قاناعات خاصة في اغلب الاحيان.

قد كره ابراهيم النخعي الكوفي(ت: ٩٦هـ) نقط المصاحف(٤).

وكره جملة الزيادات التوضيحية في المصاحف كل من: محمد بن سيرين(ت: ١١٠هـ) والحسن البصري(ت: ١١٠هـ)(٥).

وكان ذلك منهم بعناية الحفاظ على الشكل الاول وقد يغلب على ظنهم احتمال التحريف لو أباحوا ذلك، وقد يكون ذلك بداعي المغالاة في تقديس الرسم الاول، بينما افتى النووي باستحباب نقطه وشكله صيانة له عن اللحن والتحريف(٦)

ومهما يكن من أمر، فقد كان الموقف السلبي من نقط المصحف وشكله منهزماً حينما عمد المسلمون إلى إعجام القرآن ونقطه بشكل منظم، توافرت فيه النيات الصادقة، وتعاقبته الأيدي الأمانة، مما أدى بالأمر الواقع إلى تيسير تلاوة القرآن، وصيانته عن الالتباس، ومقاربتنا إلى نقطة الأمثل.

ويبدو ان الرائد الاول لذلك هو أبو الأسود الدؤلي(ت: ٦٩هـ) حينما وجدناه قد عالج بادئ ذي بدء مسألة ضبط العلامات الاعرابية في المصحف، إحترازاً من اللحن، وابتعاداً عن العجمة، ورعاية لسلامة النص، فاستعمل لذلك ما يفرق فيه بين حالات الرفع والنصب والجر بالتثوين وبدونه، وابتكر باجتهاد فطري منه طريقته الخاصة الاولى باستعمال النقط للحركات، بصورة مميزة، عدداً، وموضعاً، ولوناً، كما سترى هذا من قوله لكاتبه:

(خذ المصحف وصنيعاً يخالف لون المداد، فإذا فتحت شفتي فأنقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتها فاجعل النقطة الى جانب الحرف، وإذا كسرتها فاجعل النقطة في اسفله، فإن اتبعت هذه الحركات غنة، فأنقط نقطتين. فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره)(٧)

(٣) ظ: ابو عبيد، غريب الحديث: ٤٩/٤ + الداني، المحكم: ١٠ + السيوطي، الاتقان: ١٦٠/٤.

(٤) ظ: الداني، المحكم: ١١ + السيوطي: ١٦٠/٤.

(٥) ظ: أبي داود، المصاحف: ١٤١.

(٦) ظ: القسطلاني، لطائف الاشارات: ٣٣٢/١.

ومن خلال هذه الرواية المستفيضة، يتضح أن أبا الأسود قد خالف بين لون المداد المدون به المصحف وبين لونه لوضع هذه الحركات، وقد جعل هذه الحركات على شكل نقاط في مواضعها المعينة، وقد ظهر من ذلك ما يلي:

أ- نقطة فوق الحرف، علامة للفتحة.

ب- نقطة تحت الحرف، علامة للكسرة.

ج- نقطة في خلال أو بجانب الحرف، علامة للضممة.

د- نقطتين على الحرف، علامة للتونين.

وكان هذا العمل من أبي الأسود الدولي متميزاً بقيمة فنية أمكن بواسطتها التمييز بين الحالات الاعرابية بنقط مختلفة المواضع بعد أن كانت هملاً، وبلون يخالف الأصل المدون به المصحف زيادة في الضبط والتفريق.

وفي دوافع أبي الأسود، ومشجعاته على هذا العمل الضخم روايات وتوجيهات كالاتي:

١- ان الامام علي (ع) سمع قارئاً يقرأ (أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (٨) بكسر اللام في رسوله وهو كفر، فتقدم الى أبي الأسود (حتى وضع للناس أصلاً ومثالاً وباباً وقياساً، بعد ان فتق له حاشيته، ومهد له مهاده، وضرب له قواعده) (٩)

٢- أن أبا الأسود نفسه قد سمع الآية المتقدمة في جزئها بكسر اللام من (رسوله) فقال:

لا يسعني إلا أن أضع شيئاً يصلح به لحن هذا، أو كلاماً هذا معناه (١٠)

٣- ان زياد بن ابيه طلب اليه ان يضع للناس علامات تضبط قراءتهم، فشكل او اخر الكلمات، وجعل الفتحة نقطة فوق الحرف، والكسرة نقطة تحته، والضممة نقطة الى جانبه، وجعل علامة الحرف المنون نقطتين (١١).

وقيل إن زيادا ارسل اليه ثلاثين كاتباً للقيام بهذه المهمة (١٢).

٤- وقيل: إن ابا الأسود إنما قام بهذا وبنقط القرآن- كما في رواية أخرى- بأمر عبد الملك بن مروان (١٣).

(٧) السيرافي، أخبار النحويين البصريين: ١٦٦+ ابن النديم، الفهرست: ٤٠+ ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: ٣٩/١ + الفلقشندي، صحح الاعشى: ١٦٦/١.

(٨) التوبة: من الآية ٣

(٩) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر: ٢٦١/١.

(١٠) البلوي، الف با: ٢١٠/١

(١١) الأنباري، نزهة الالباب في طبقات الأدباء: ١٠ وما بعدها.

(١٢) ط: الزمجانى، تاريخ القرآن: ٨٨.

والملاحظان الاخيران يؤكدان استجابة ابي الاسود الدولي لهذا الامر بسبب امر رسمي من سلاطين عصره وهو ما لا يتفق مع عزلة ابي الاسود الدولي السياسية، وعزوفه عن المناخ الرسمي، ولعل القلقشندي يدفع عنه ذلك صراحة، ويوضحه فيقول:

(ان أول من نقط القرآن، ووضع العربية أبو الاسود الدولي من تلقين أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه)(١٤)

والغريب الذي لا يمت الى اساس علمي ان يستبعد كل ما تقدم به ابو الاسود الدولي مع تظاهر الروايات على صدقه او على شهرته على الأقل، بعض الدارسين المعاصرين، فمن يعد انفراد ابي الاسود الدولي في ذلك ليس منطقيا أو معقولا، ولا يقوم على أساس عقلي، وكأنه يستكثر ذلك عليه إن لم يستكره، بينما يعتبر أن للحجاج عملا عظيما لا سبيل الى انكاره في الاشراف على نقط القرآن.(١٥)

ولدى التحقيق- كما ستري فيما بعد- فليس هناك مصدر واحد يوثق به، أو نقل ثابت يورخ النقولات.

وليت شعري ما المانع العقلي أو المنطقي الذي يراه صبحي صالح حائلا عن قيام ابي الاسود بذلك، وابو الاسود عالم موسوعي في كثير من فنون الادب واللغة والتراث، وهو بعد تلميذ الامام علي (ع) ولم تشغله سياسة القوم عن النهج العلمي.

ولقد أكمل عمل ابي الاسود من بعده، اثنان من تلامذته هما يحيى بن يعمر العدواني (ت: ٩٠ هـ تقريبا) ونصر بن عاصم الليثي (ت: ٨٩ هـ) حيث وضعا النقط على الحروف ازواجا وافرادا وقد كان وضع النقاط على الحروف حقيقيا لا على سبيل الاستعمال المجازي وبذلك تميزت صور الحروف المتشابهة، وصار لكل حرف صورة تغاير صورة غيره من الحروف، طبقا لما نجده متعارفا في كتابتنا المتداولة اليوم(١٦)

ثم زاد أتباع ابي الاسود الدولي علامات أخرى في الشكل، فوضعوا- مضافا الى ما تقدم- للسكون جرة افقية فوق الحرف منفصلة عنه سواء كان همزة أم غير همزة، ووضعوا الالف الوصل جرة في أعلاه متصلة به أن كان قبلها فتحة، وفي أسفلها أن كان قبلها كسرة، وفي وسطها ان كان قبلها ضمة(١٧).

(١٣) ظ/ السيوطي، الاتقان: ١٦٠/٤.

(١٤) القلقشندي، صبح الاعشى: ١٥١/٣.

(١٥) ظ: صبحي صالح، مباحث في علوم القرآن: ٩٤.

(١٦) ظ/ ابو احمد العسكري، شرح ما يقع في التصحيف والتحريف: ١٣+ حمزة الاصبهاني، التنبيه على حدوث التصحيف:

٢٧.

(١٧) ظ: الزنجاني، تأريخ القرآن: ٨٨.

ويأبى التاريخ الا ان يضيف للحجاج بن يوسف الثقفي (ت: ٩٥هـ) أنه اصلح من الرسم العثماني في عدة مواضع حددت بانها احدى عشر كلمة فكانت بعد اصلاحه لها أوضح قراءة (١٨)

ولا مانع من هذا تأريخيا، وهو جهد عادي، اذ ارتبط باصلاح املائي لرسم المصحف، ولا في نقطة وأعجابه كما تخيل صبحي الصالح، الذي اعتبر عمل الحجاج عظيما ومشكورا لا سبيل الى انكاره في الاشراف على نقط القران، وهو أمر موهوم كما رأيت.

وحينما ظهرت مشكلة اختلاط نقط الحركات التي وضعها ابو الاسود بنقط الحروف المنتشابهة الرسم التي وضعها تلامذته كما اسلفنا، استطاع الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: ١٧٠هـ) أن يبتدع اشكال الحركات، فتميزت حينئذ الحركات عن الحروف فقد جعل الحركات حروفا صغيرة بدل النقط، وابتكر لكل حركة ما يناسبها في الشكل من الحروف، فالضمة واو صغيرة فوق الحرف، والكسرة ياء مردفة تحت الحرف، الفتحة ألف مائلة فوق الحرف.

وقد وفق الخليل مضافا لهذا الى ابتكار علامات الهمز والتشديد والروم والاشمام (١٩).

وحينما أباح المسلمون لأنفسهم ضبط النص المصحفي في النقط والحركات وقواعد الهمز والتشديد احدثوا النقط عن آخر الآي، ثم الفواتح والخواتم، حتى قال يحيى بن أبي كثير: (ما كانوا يعرفون شيئا مما أحدث في المصاحف الا النقاط الثلاث عل رؤوس الآي) (٢٠)

وكان هذا العمل ايدانا بمعرفة حدود الآية، اذت يفصل بينها وبين الآية التي تليها بمؤشر نقطي وتطور فيما بعد الى شكل دائري، يوضع داخله رقم الآية، وبذلك تم تأشير أعداد الايات وضبطها في السورة الواحدة.

وكان ذلك في الوقت نفسه مؤشرا على حركة تطويرية في شكل المصحف لا تتوقف عند حد من حدود التحسينات الشكلية والايضاحية، بل تستقطبها جميعا فيما يحقق قائدة أو يزيل لبسا فقد عمدوا بعد ذلك الى كتابة الاحماس والاعشار، وهو أن يدونوا بعد كل خمس آيات أو عشر آيات رقمها وعددها وكان قد كره ذلك جماعة من الاوائل على ما يدعى، كأبن مسعود ومجاهد والنخعي والحليمي (٢١).

ولكنه لا يتعارض مع أي اصل ديني بل هو أمر احصائي لا غبار عليه على عائدته في التدقيق.

وحينما ادخل ما سبق تفصيله على الرسم العثماني لم تقف حركة التطوير عند هذا الحد تجاه الرسم الاول بل اضيف اليه كل ما يتعلق باحكام السجود القراني الواجب والمندوب فوضعوا في الهوامش اشارات الى مواضع السجود، بحيث اتضح كونه شيئا والنص القراني شيء اخر

(١٨) ظ/ ابن ابي داوود، كتاب المصاحف: ١١٧.

(١٩) ظ/ البلوي ألف با: ٧٦/١ + السيوطي، الاتقان: ١٦٠/٤.

(٢٠) السيوطي، الاتقان: ١٦٠/٤.

(٢١) المصدر نفسه: ١٦٠/٤.

لانفصاله عنه الى الجوانب شأنه في ذلك شأن تعيين الاحزاب والارباع والاجزاء، واشارات التجويد في مغايرة رسمها في المدار، وان كانت ضمن النص مما استحسسه البيهقي فقال:

(ولا يخلط به ما ليس منه، كعدد الايات والسجدات والعشرات، والوقوف، واختلاف القراءات، ومعاني الايات)(٢٢)

وقد جعلوا لما تقدم بعض الضوابط لتمييز القران من القراءات، والنص من الاضافات، ولجأوا الى تنويع لون المداد لكل من الرسم والشكل والنقط، كحل أولي لرفع الالتباس، وازالة الابهام.

قال الداني وهو يشير الى ماتقدم بل ويفتي به: (لا استجيز النقط بالسواد لما فيه التغيير لصورة الرسم، ولا استجيز جمع قراءات شتى في مصحف واحد بألوان مختلفة لانه من اعظم التخليط والتغيير للمرسوم وأرى ان تكون الحركات والتنوين والتشديد والسكون والمد بالحمرة، والهمزات بالصفرة)(٢٣)

وواضح في النص وغيره من النصوص الاخرى ان الرسم المصحفي للآيات كان يكتب بالمداد الاسود، لهذا استحبوا ان تكون العلامات بالحمرة، والهمزات بالصفرة، وليكون ذلك عرفا شائعا عند العامة والخاصة.

وهكذا جرى الضبط والتدقيق للشكل في القران، فأضيف له بعد رسمه في الخط الكوفي والنقط والحركات والهمز والتشديد والتخميس والتعشير، والفصل بين الايات وترقيمها، ثم تطور الاخير الى دوائر صغيرة، وضع فيها رقم الآية بحسب تسلسلها من السورة، ثم كتبت اسماء السور مع عدد آياتها في اول السورة وقبل البسملة متخذة لذلك عنوانا بالاسم واحصاء بالآيات ثم قسم هذا النص الى ثلاثين جزءا، وقسم كل جزء الى اربعة احزاب وكان ذلك باشارات هامشية وارقام وكتابات جانبية رسمية مختلطة بالنص القراني الكريم، والى جانب هذا اضيفت علامات التجويد والوقف ومواضع السجود وامثال ذلك مما لم يكن معروفا في عصر النبي (ص) والائمة (ع) والصحابة (رض)، وهي زيادات قصد بها الايضاح والكشف والبيان، ولم يخالف فيها الرسم المصحفي، فقد بقيت صور الكلمات على هيئتها، وحافظت على اشكالها كما وصفتها لنا كتب السلم في الموضوع، وفي طليعتها كتاب: المقنع في معرفة مرسوم مصاحف اهل الامصار، لابي عمر وعثمان بن سعيد الداني(ت: ٤٤٤ هـ).

وبقي الرسم العثماني للمصحف هو الاساس في خط المصحف الكريم قديما وحديثا، فحينما تطورت عملية الكتابة، وتبلور فن الخط، لم يفقد ذلك الاساس اهمية على الاطلاق، اذ ظل المنار الهادي لدى أغلب خطاطي مختلف العصور نظرا لاكتمال الصورة الاولى للمصحف، وان انتقل الشكل في العموم من الخط الكوفي الى الخط النسخي المعروف.

وتوجد الان في مكتبات العالم مجموعة كبيرة من المصاحف المخطوطة القديمة او قطع منها بعضها مكتوب على الرقع، وبالخط الكوفي القديم، مجردة من النقط بعضها مكتوب على الرقن

(٢٢) المصدر نفسه: ١٦١/٤.

(٢٣) المصدر نفسه: ١٦١/٤ وما بعدها.

وبالخط الكوفي القديم مجردة من النقط والشكل ، وكثير مما الحق بالمصاحف من اسماء السور وعدد آياتها وغير ذلك بحيث تبدو اقرب الى الصورة التي كانت عليه المصاحف الاولى(٢٤)

وقد شاهدت كثيرا من الاثار المصحفية في المتحف البريطاني في لندن مصنونة ومحافظ عليها بعناية اثارية فائقة، وبحواجز زجاجية محكمة لا تصل اليها يد الناظر، وقد اشير ببعضها الى تواريخ قديمة قد يرجع قسم منها الى القرون الاولى، ولا نعلم مدى توثيقها.

اما الرسم المصحفي الاول للقران، أعني كتابته على الكتابة الاولى، فقد جاء دور الحديث عنه وأول ما نفجأ به، هو الهالة الكبرى من التقديس لهذا الرسم مما يضفي شيئا كثيرا من المغالاة التي لا مسوغ اليها في اغلب الاحيان وانا وان كنا لا نعارض نبجيله والاعتداد به، ولكننا نعارض الغلو في شأنه ويبدو ان هذا الغلو والتقديس، وما صاحب ذلك المصحف عند توحيد القراءة، وان كانت تلك الكتابة مخالفة لاصول الاملاء وقواعد الخط، اذ الكتابة تصوير لنطق اللفظ، والعبرة بنطق ذلك اللفظ، لا بتصويره، والتطرف في اضافة صفة التقديس على الكتابة الاولى، لا يعضده دليل نصي على الاطلاق وما قيل هنا وهناك من توقيف كتابة المصحف، لا يستند الى اساس من نقل او عقل او كتاب وليس فيه ما هو مرفوع الى الرسول الاعظم(ص) اجماعا، بل كان منسجما مع طبيعة ما يحسن الكتابة، سواء أكان جنس ما يحسنون ممتازا، ام هو ما تعارفوا عليه مما يؤدي الى النطق الصحيح بالكلمات والآيات وهو أمر يرجع الى مدى الجهد الذي بذله القدامى املائيا وهجائيا في ضبط الرسم وما من شك ان يحصل الاختلاف بين الكتابة بقدر تفاوت الضبط فيما بينهم او على نحو من اختلاف القبائل فيما تكتب مما طبع اثره على الاختلاف في الخطوط.

حينما جمع القران على لغة قريش ووحدت القراءات على حرف معين حصل جزء من هذا الاختلاف فقد قال الزهري: (واختلفوا يومئذ في التابوت والتابوه، فقال نفر القريشيين: التابوت فإنه بلسان قريش)(٢٥)

وفي رواية مماثلة: (فانما أنزل القران على لسان قريش)(٢٦)

وأما ما ادعاه ابن المبارك في نقله عن شيخه عبد العزيز الدباغ انه قال:

(ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القران ولا شعرة واحدة، وانما هو توقيف من النبي وهو الذي امرهم ان يكتبوه على الهيئة المعروفة: بزيادة الالف ونقصانها لأسرار لا تهتدي اليها القول، وهو سر من الاسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية وكما ان نظم القران معجز فرسمه ايضا معجز وكيف تهتدي العقول الى سر زيادة الالف في (مائة) دون (فئة) والى سر زيادة الياء في (بأييد) و (بأييكم) ام كيف تتوصل الى سر زيادة الالف في سعوا بالحج، ونقصانها في سعوا بسبأ؟ والى سر زيادتها في (يعفوا الذي) ونقصانها في (من يعفو عنهم) في النساء؟ ام كيف تبلغ العقول الى وجه حذف بعض أحرف من كلمات متشابهه دون بعض كحذف

(٢٤) نقل هذا النص غانم قدوري، عن جولدتسهير وغيره، ط: محاضرات في علوم القران: ٩٣، وانظر مصادره.

(٢٥) ابي داود، المصاحف: ١٩.

(٢٦) الزركشي، البرهان: ٣٧٦/١.

الالف م قرءنا بيوسف والزخرف، واثباتها في سائر المواضع واثبات الالف بعد او سموات في فصلت وحذفها في غيرها واثبات الالف في الميعاد مطلقا وحذفها من الموضع الذي في الانفال واقبات الالف في سرادا حيثما وقع وحذفه من موضع الفرقان؟ وكيف نتوصل الى حذف بعض التاءات وربطها في بعض؟

فكل ذلك لاسرار الهية، واغراض نبوية وانما اخفيت على الناس لانها اسرار باطنية لا تدرك الا بالفتح الرباني، بمنزلة الالفاظ والحروف المقطعة في اوائل السور فان لها اسراراً عظيمة ومعاني كثيرة وأكثر الناس لا يهتدون الى اسرارها ولا يدركون شيئاً من المعاني الالهية التي اشير اليها فكذلك أمر الرسم الذي في القران حرفاً بحرف)(٢٧)

فهو كلام طويل عريض يشتمل على ادعاءات وافتراضات لا نوافقه عليها من عدة وجوه:

الأول: ان الرسم المصحفي لم يرد فيه ولا حديث واحد عن النبي فكيف يكون توقيفا، والنبي (ص) أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا يتهجى، فكيف يتم هذا الغلو بشأنه، بادعاء ان ما كتبه كان بأمره هو تجاوز عل مقام النبي (ص) أن يأمر بما يخطأ فيه ويصاب هجاء واملاء مما نعتبره دون أدنى ريب خارجاً عن توجيه النبي (ص) وتوقيفه، لانه لا يحسن منه شيئاً، واما ما ورد بالرزم ان النبي(ص): قال لاحد كتبة الوحي:

(اللق الدواة وحرف القلم وانصب الباء وفرق السين ولا تعور الميم وحسن الله ومد الرحمن وجود الرحيم وضع قلمك على اذنك اليسرى فانه اذكر لك)(٢٨)فموضوع لا أصل له، ويدل عل وضعه ونحله كون النبي (ص) أميا فما ادراه بأصول الخط؟ وما هي معرفته بالحروف ومميزات كتابتها وهو فاقد لأصل الصنعة، وفاقد الشيء لا يعطيه كما يقولون، وليس في ذلك انتقاص للنبي(ص) ولا غض من منزلته، ولكن الحقيقة التي نطق بها القران في أكثر من موضع بأنه أمي، وهذه الحقيقة صاحبت حياته كلها وهي ليست نقصاً في شأنه، بل اقتضتها الحكمة الالهية لدرء تخرصات المشركين وارتياح المبطلين فهي كرامة لا منقصة، وتشريف لا تضعيف، وتكريم لا توهين.

لقد أوتي النبي (ص) جوامع الكلم، وفصل الخطاب، والنص المتقدم لا ينسجم مع بلاغة النبي (ص) القولية، ولا يتفق مع فصاحته المتناهية، فالصنعة بادية على النص والتكلف بين السمات عليه وعدم ارتباطه فنيا ببعده عن كلام افصح من نطق بالضاد ثم ما هي علاقة الكتابة بوضع القلم على الاذن اليسرى؟ وهل يصدق ان يكون هذا الهراء من كلام الرسول؟ وأين هي المعاني الجامعة في هذا النص الهزيل؟ وما هو وجه النظم بين فقراته التائهة، وما هو المراد منها؟

الثاني: لو كان رسم المصحف توقيفا، لكانت خطوط كتاب الوحي واحدة وليس الامر كذلك، فقد اشير كثيرا الى اختلاف المرسوم منها في جملة من الروايات.

الثالث: ليس في كتابة أي نص سر من الاسرار كما يدعى، وانى توصل لذلك؟ وكيف يطلق الكلام جزافاً؟ وهل هناك م له ادنى مسكة من عقل، او اثاره من علم فيدعى ان رسم المصحف

(٢٧) الزرقاني، مناهل: ٣٧٦/١.

(٢٨) المصدر نفسه: ٣٧٠/١.

معجز كنظم القرآن، والقران معجزة بتحديه ونظمه وحسن تأليفه وتفوقه باستعاراته ومجازاته وكنياتته وارتباط كل ذلك بالكشف عن الغيب والتحدث عن المجهول واستقراء الاحداث واشتماله على الاعجاز التشريعي مضافا الى الاعجاز البلاغي الذي لا تناسب البيئة التي نزل بها القرآن، وتمكنه باسراره العلمية ونظرياته الثابتة القرآن معجك بصورته الفنية التي اعتبرت اللفظ حقيقة والمعنى حقيقة اخرى والعلاقة القائمة بينهما حقيقة ثالثة وهل يقاس هذا بالخط ولااملاء وما أعجاز الخط وما هي اسرار الاملاء؟ حتى لا تهتدي العقول الى سر زياد الالف في جملة من الكلمات، وحذفها من كلمات اخرى نعم السر واضح، وهو بكل بساطة وكل تواضع وكل موضوعية: خطأ الكاتبيين، ولا علاقة لخطأهم بالنص، فالنص القرآني متعبد بتلاوته لا برسمه، ولا يطالب الاوائل بأكثر من هذا الجهد في ضبط النص القرآني بعد ان ورد عن رسول الله (ص) قوله: (نحن امة امسة لا نكتب ولا نحسب)(٢٩)

فكتابة المصحف اذن كانت في ضوء ما الفوه من الهجاء واعتادوه من الرسم وذلك قصارى جهدهم وما ورد فيها من المنافيات اصول الخط لا يتعارض مع اصول المعاني ومداليل الالفاظ فالاملاء لا يغير نطقا، ولا يحرف معنى.

الرابع: ليس من المنطق العملي ولا من المنهج الموضوعي ان نقارن ولو بوجه ضئيل بين الرسم المصحفي الذي كتبه البشر وبين اوائل السور القرآنية ذات الحروف المقطعة التي قام الاجماع والتواتر على انها من الوحي الالهي والنص القرآني وللعلماء فيها اراء واجتهادات وفي مضامينها روايات واخبار، وفي عرضها رموز واشارات وليس هذا اموضع بحثها فلسنا بصددها الا انها من القران المعجز وليس الرسم المصحفي من الاعجاز في شيء وانما هو يخضع لمدى ما يحسن به الكاتب، واين التحدي من السماء بالاعجاز الى الصنعة الارضية التي تتفاوت جودة وضعفا واتقاناً.

وقد حقق عبد الرحمن بن خلدون (ت: ٨٠٨هـ) في قضية الرسم القرآني والقى مزيدا من الاضواء الكاشفة على فكرة التعصب للرسم العثماني وانتهى من فلسفة القول في الخط عند العرب بعامة فقال:

(وكان خط العرب لأول الاسلام غير بالغ الى الغاية من الاحكام والاتقان ولا الى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع انظر ما وقع لاجل ذلك في رسمهم المصحف، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير محكمة الاجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند اهلها.

ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه اصحاب الرسول(ص) وخير الخلق من بعده ، المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه كما يقتفى لهذا العهد خط ولي او عالم تبركا ويتبع رسمه خطأ أو صوابا.

وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوا فاتبع ذلك واثبت رسما ونبه علماء الرسم على مواضعه. ولا تلتفتن في ذلك الى ما يزعمه بعض المغفلين من انهم كانوا محكمين لصناعة الخط وان ما

يتخيل من مخالفته خطوطهم لأصول الرسم كما يتخيل، بل لكلها وجه وما حملهم على ذلك الا اعتقادهم ان في ذلك تنزيها للصحابة رضوان الله عليهم عن توهم النقص في قلة اجاة الخط وحسبوا ان الخط كمال فنزهوهم عن قصه ونسبوا اليهم الكمال باجادته وطلبوا تعليلا ما خالف الاجادة عن رسمه وليس ذلك بصحيح.

واعلم ان الخط ليس بكمال في حقهم اذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية والكمال في الصنائع اضافي وليس بكمال مطلق اذ لا يعود نفسه على الذات في الدين ولا في الخلال وانما يعود على اسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لاجل دلالة على ما في النفوس.

لقد كان (ص) أميا، وكان ذلك كمالا في حقه، والنسبة الى مقامه، لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التي اسباب المعاش والعمران كلها. وليست الامية كمالا في حقنا نحن اذ هو منقطع الى ربه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا)(٣٠)

ورأي ابن خلدون واضح الابعاد في القاء التبعة على من يتصور ان الخط كمال مطلق في حد ذاته وان فقدانه يشكل نقصا جليا وعبيا لا يطاق وصوبوا في كتابته من خطأ وليس الامر كذلك فالاخلال ببعض قواعد الخط وجملة من اصول الاملاء ليس نقصا بحقهم بل هي الطاقة وجهد المقدور والتعظيم لمنزلة الصحابة ولا يعني ان نغض الطرف عن خطأ هجائي واصل املائي فمنزلتهم شيء وحقائق الامور شيء آخر، ولهذا كان ابن خلدون فيما قدمه من رأي جريئا في الحكم وسخيا في العرض وواقعا في المبادرة.

وهناك موقف للباقلاني(ت:٤٠٣هـ) يتناسب مع الذائقة الفطرية لطبية الاشياء فما لم يفرض فيه أمر لا يستتبط منه حكم وما لا وجه له يحدد بوجه مخصوص لقد بين حقيقة هذا الامر بقوله:

(واما الكتابة فلم يفرض اله على الامة فيها شيئا، اذ لم يأخذ على كتاب القران وخطاط المصاحف رسما بعينه دون غيره أوجبهم عليهم وترك ما عداه اذ وجوب ذلك لا يدرك الا بالسمع والتوقيف وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه ان رسم القران وضبطه لا يجوز الا على وجه مخصوص وحد محدود ولا يجوز تجاوزه ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه ولا في اجماع الامة ام يوجب ذلك ولا دلت عليه القياسات الشرعية بل السنة دلت على جاوز رسمه باي وجه سهل لان رسول الله (ص) كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجها معينيا ولا نهى احدا عن كتابته ولذلك اختلفت خطوط المصاحف فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بان ذلك اصطلاح وان الناس لا يخفى عليهم الحال ولاجل هذا يعينه جازان يكتب الحروف باللغة الكوفية والخط الاول وان يجعل الام على صورة الكاف وان تعوج الالفات وان يكتب على غير هذه الوجوه وجاز ان يكتب المصحف بالخط والهجا القديمين وجاز ان يكتب على غير هذه الوجوه، وجاز ان يكتب المصحف بالخط والهجا القديمين وجاز ان يكتب بالخطوط والهجا المحدثه، وجاز ان يكتب بين ذلك.

وإذا كانت خطوط المصحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة وكان الناس قد اجازوا ان يكتب كل واحد منهم بما هو عادته وما هو اسهل واشهر واولى من غير تأنيب ولا تناكر علم

انه لم يؤخذ في ذلك على الناس حد محدود مخصوص كما أخذ عليهم في القراءة والاذن والسبب في ذلك ان الخطوط انما هي علامات ورسوم تجري بمجرى الاشارات والعقود والرموز فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على اية صورة كانت.

وبالجملة فكل من ادعى انه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه ان يقيم الحجة على دعاؤه وانى له ذلك)(٣١)

ورأي الباقلاني قوي الحجة بجواز كتابة المصحف بأي خط اتفق يدل على الفاظ القران ويفصح عن قراءته بدليل قبول كتابته بالحروف الكوفية وبالخطوط المحدثه وبالهجاء القديم وفيما بين ذلك.

ومع اصالة هذا الرأي الذي لم يتأثر بميل او هوى فقد تجد من يأتي بعده ويتكأ على كثير من آراءه يخالفه جملة وتفصيلا دون دليل علمي في الموضوع.

قال القسطلاني: (ت: ٩٢٣ هـ) وأكثر رسم المصاحف موافق لقواعد العربية الا انه قد خرجت اشياء عنها، يجب علينا اتباع مرسومها، والوقوف عند رسومها، فمنها ما عرف حكمة ومنها ما غاب عنا علمه)(٣٢)

والقسطلاني يريد بتعبيره بأن اكثر رسم المصاحف موافق لقواعد الاملاء العربي، واصول الخطوط، وما خرج عن ذلك يجب اتباعه في نظرة ولا أعلم من اين استفاد وجوب اتباع مرسوم هذه الخطوط والوقوف عند رسومها وما هي فلسفة حكمة من الاخطاء الاملائية وما غاب عنا علمه من الاشتباهات الهجائية وليست تلك الا امور موهومة دعا اليها الغلو الفاحش والطيش في العاطفة وهو نفسه يقول:

(ثم ان الرسم ينقسم الى قياسي، وهو موافقة الخط للفظ، واصطلاحى وهو مخالفته ببديل او زيادة او حذف او فصل او وصل للدلالة على ذات الحرف او اصله او فرعه او رفع لبس او نحو ذلك من الحكم والمناسبات)(٣٣)

وهذا هو التقسيم الصحيح والرسم المصحفي اصطلاحى لا شك تواضع عليه كتابة المصاحف الاولى واشتمل على مخالفة الخط للفظ في وجوه البدلية والزيادة والنقصان والحذف والفصل والوصل وكأن ذلك شائعا في جملة من الحروف لا سيما في ابدال الالف ياء زيادة الالف بعد واو الجماعة الداخلة على بعض الاسماء وحذفها يعد جملة من الافعال في ذات المكان واثبات لبعض الافعال المعتدلة بالواو وفي اثبات الهمزة ففي الوصل حيناً وحذفها حيناً اخر وفي ما فيه قراءتان والرسم على احدهما كما هو ملاحظ في جملة من خطوط الرسم المصحفي.

(٣١) ط/ محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان: ٣٧٣/١ وما بعدها.

(٣٢) القسطلاني، لطائف الاشارات: ٢٨٥/١.

(٣٣) ط: محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان: ٣٧٣/١ وما بعدها.

وقد حصر السيوطي امر الرسم المصحفي في الحذف والزيادة والهمز والبدل والفصل وما فيه قراءتان فكتب باحدهما(٣٤).

ولا حرج ملقا في ان يكتب المصحف كاتب او يطبعه طابع باي هجاء شاء ما دام لا يخرج عن النطق المطلوب كما انزله الله تعالى وكما تنطق به العرب اذ لا يختلف اثنان في ان المراد بالقران هو الفاظه ومعانيه ومقاصده ومراميه لا هجاؤه ورسمه وهيكله والقران ما رسم بهذا الرسم ولا كتب بهذا الهجاء الا لانه الهجاء المعروف المتداول في العصر الاول(٣٥).

وما القول بوجوب اتباع الرسم القديم وعدم مخالفته وتعيده الا نوع من انواع التزم التي لا يتفق مع النهج العلمي والارتفاع الاوائل من مستوى الاحترام المناسب الى مستوى التقديس اللامعقول وبهذا الملحظ فاننا لا نميل الى ما قرره البيهقي في شعب الايمان بقوله:

(من كتب مصحفا فينبغي ان يحافظ على الهجاء التي كتبوا فيها المصحف ولا يخالفهم فيها ولا يغير مما كتبوه شيئا فانهم اكثر علما واصدق قلبا ولسانا واعظم امانة منها فلا ينبغي ان نظن انفسنا استداركا عليهم)(٣٦).

بل نذهب الى جواز المخالفة وتيسير القران بالخط والخجاء والذي لا لبس فيه فلا يؤدي الى اختلاف ولا يؤول الى ابهام وليس في ذلك تحامل على السلف فليس الخط ونقصانه مما يشكل استخفافا بهم ولا هو يتنافى مع ورعهم وتقواهم ولا علاقة له لانهم اصدق لسانا واعظم امانة ما دام ان الخطوط لم تكن متكاملة المعالم في عهودهم.

يقول الاستاذ احمد حسن الزيات: (الغرض من كتابة القران: ان نقرأه صحيحا لنحفظه صحيحا، فكيف نكتبه ب لاخطأ لنقرأ بالصواب؟ وما الحكمة ان يقيد كلام الله بخط لا يكتب به اليوم أي كتاب)(٣٧)

ولقد كان عز الدين بن عبد السلام جريئا ومحافظا في وقت واحد بقوله:

(لا يجوز كتابة المصحف الان على لارسوم الاولى باصطلاح الانمة لنلا يوقع في تغيير الجهال ولكن لا ينبغي اجراء هذا على اطلاقه لنلا يؤدي الى دروس العلم، وشيء احكمته القدماء لا يترك مراعاته لجهل الجاهلين، ولن تخلوا الارض من قائم لله بالحجة)(٣٨). فهو يدعوا الى تطوير الرسم المصحفي رفعا لمشاكل القراءة عند المحدثين ويدعوا الى الاحتفاظ بالرسم العثماني كجزء من التراث الذي لا يترك حبا بالاقدمين.

(٣٤) ظ: السيوطي ، الاتقان: ١٤٧/٤ .

(٣٥) ظ/ ابن الخطيب ، القران: ٨٤ وما بعدها.

(٣٦) الزركشي، البرهان: ٣٧٩/١ .

(٣٧) مجلة الرسالة المصرية، عدد ٨ يناير ، ١٩٥٠ .

(٣٨) الزركشي، البرهان: ٣٧٩/١ .

ولقد اوضح السيوطي حقيقة مخالفة الخط المصحفي في بعض الحروف لقواعد الخط العربي فقال: (القاعدة العربية ان اللفظ يكتب بحروف هجائية مراعاة الابتداء والوقف عليه وقد مهد النجاة له اصولا وقواعد وقد خالفها في بعض الحروف خط المصحف الامام)(٣٩)

وانى كانت وجهة النظر تجاه الرسم المصحفي، فهي لا تعني شيئا ذا اهمية قصوى، لانها مسألة شكلية لا تتعلق بجوهر القران، ولا تغير حقيقته لان اختلاف بعض الخطوط لقواعد الهجاء لا يحل حراما ولا يحرم حلالا، ليتحقق بعد هذا كله التأكيد الالهي بحفظ القران سالما من التحريف مصانا عن الزيف.

وقد شاعت العناية الالهية ان يظل شكل القران متجاوبا مع اختلافات الرسم في كل العصور ومتجانسا مع عملية التطوير الكبرى للخط العربي فقد دأب المتخصصون بصياغة كل الخطوط وطرائقها ان ينقلوه من جيل الى جيل مطابقا للأصل الكوفي مع اضافة الاشكال التطويرية زيادة في الايضاح ورفعاً للالتباس وكان ذلك متواترا طيلة اربعة عشر قرنا من الزمان فما وجدنا في طول العالم الاسلامي وعرضه نصا قرانيا يخالف نصا اخر ولا مخطوطا يعارض مخطوطا سواه حتى هيا الله تعالى الطباعة لتزود المسلمين بل الناس اجمعين بملايين النسخ من القران الكريم وبمختلف الطباعات الانيقة والمذهبة والمحكمة وهي تعطر كل بيت وتشرف كل منتدى وتحل صدر كل مكتبة.

وكان دور الطباعة مهما في نشر القران الكريم في كل اوربا والبلدان الاسلامية والوطن العربي.

فقد نشر القران مطبوعا للمرة الاولى في البندقية في حدود سنة ١٥٣٠هـ بيد ان السلطات الكنسية وقفت منه موقفا متعصبا فأصدرت باعدامه عند ظهوره ثم قام هنكلمان بطبع القران في مدينة هانبروغ عام ١٦٩٤م وتلاه (مراتشي) بطبعه في بادو عام ١٦٩٨م.

وقد ذكر كل من بلاشير وشزر وبفلنمر ان اول طبعة اسلامية للقران كانت في سانت بطرسبورج بروسيا عام ١٧٨٧م وهي التي قام بها مولاي عثمان وبعد هذا قدمت ايران بطبعتين حجريتين الاولى في طهران عام ١٨٢٨م في تبريز عام ١٨٣٣م(٤٠)

وفي مصر قام الشيخ رضوان بن محمد الشهير بالمخلاتي بكتابة مصحف عني فيه بكتابة الكلمات في ضوء الرسم العثماني وقد له بمقدمة أبان فيها تحرير المصحف ورسمه وضبطه، وطبع بمقدمة حجرية هي المطبعة البهية في القاهرة عام (١٣٠٨هـ)(٤١).

وقد بقي طبع القران في الوطن العربي بل الاسلامي مقتصر على مصر في اغلبية مشروعاته ثم قامت عدة دول بطبع القران طباعات انيقة فاقت ما قدمته مصر، كان ذلك في عصر تقدم الطباعة والاتها ومستلزماتها، وتحسين الورق واودهار الخطوط وكان ذلك حديثا وفي بدايات النصف الثاني من القران العشرين حينما استعانت هذه الدول بمطابع راقية في الدول الغربية

(٣٩) السيوطي، الاتقان: ١٤٦/٤.

(٤٠) ط: صبحي الصالح، مباحث في علوم القران: ٩٩ انظر مصادره.

(٤١) ط: عبد الفتاح القاضي، تاريخ المصحف الشريف: ٩١٤ وما بعدها.

لسمح ملايين النسخ من القرآن الكريم بأبهى حلة لا سيما في مطابع ألمانيا وشركاتها وكان في طليعة من تصدى لهذه العمل من دول الشرق الاسلامي وغربه كل من: العراق وتركيا وايران وسوريا والمغرب والجزائر وتونس وغيرها.

وفي ضوء جميع ما تقدم نجد ان شكل القرآن قد استقر الان على ما استقر عليه بالتحسينات والايضاحات والاناقة الطباعية مما قطع معه ان لم يقدر لأي اثر ديني ان يحتفي بهذا القدر من الاحتراف كما قدر للقران الكريم، كتابة، وشكلا ورسماء، وحفظا، وطباعة، وانتشارا.